المديح النبوي في شعر للنساء

الباحث: الدكتور جاويد أحمد بال[١]

الملخص

المديح النبوي موضوع شامل يطغى كل العصور والأزمنة منذ بعثة النبي عليه الصلاة والسلام لارتباط الحب القوي مع الإيمان، النساء شأنهن شأن الرجال في الحب والإيمان، فكل المؤمنين والمؤمنات يحبون أن يكون لهم نصيب أو سهم في مدح النبي صلى الله عليه وسلم بالقول المنثور أو المنظوم، والشاعرات بصفتهن ذوات القلوب الرقيقة ربما يرغبن أكثر إلى التعظيم والتوقير ومظاهر ذلك تتجلى حتى في ترنيمات الأمهات لأطفالهن، والمشاعر الدينية تتدفق بشكل أقوى في صورة الشعر عند النساء الشواعر، ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم من أهم غرض شعري عندهن أيضاً، فكثير من الشاعرات مازلن يشاركن في هذا النوع الأدبي منذ الرعيل الأول في زمن النبوة إلى الجيل المعاصر، فوجد إرث شعري من هذا النوع لا يغض الطرف عنه، هذه الورقة تلقي الضوء عليه دون الخوض في كل تفاصيله، فتناول البحث شعر عمات النبي صلى الله عليه وسلم الذي يعبر عن صفات الرسول عليه الصلاة والسلام في إطار الرثاء التقليدي ويتدرج البحث إلى ذكر النساء اللاتي جئن بعدهن واللاتي قدمن أجمل المدائح لا تقل قيمة من مدائح الشعراء الرجال مثل مدائح السيدة عائشة الباعونية وهذه المدائح تتسم بطابع التصوف في كثير من معانيه والجيل المعاصر من الشاعرات تصدين بهذا الغرض الشعري من منطلقات الحداثة والمعاني الروحية مثل الشاعرة الموريتانية زينب بنت عابدين فهي تمزج

١ أستاذ مشارك في الكلية الحكومية للبنات في بلوامه كشمير paljavid@gmail.com

حقائق روحية مع ثقافة مستحدثة، وعلى كل حال نجد في غضون كل المدائح ذكر الفضائل والشمائل ومكارم الأخلاق وفوق كل ذلك تطغاها عاطفة الحب والإيمان

الكلمات المفتاحية: المدح، الرسول، الحب، الشعر، النساء

المديح النبوي ينبوع من الشعر يتفجر من خلال حب صادق وإيمان راسخ، والحب والإيمان من أهم المعاني التي يعيشها المؤمنون والمؤمنات لذلك التعبير عنهما لا ينحصر ولا ينتهي، فالتعبير باق ما دام المعنى موجوداً، وحسب تعبير الدكتور شوقي ضيف "الموضوع واحد ولكن حديث عنه لا ينفد"[١]، وإذا اقتصرنا الكلام على كونه فنا من فنون الشعر فالموروث غزير لا يحيطه حصر ولا يحده حد ولا يتوقف على العصر دون العصر حتى وصف المقري التلمساني هذا الموروث الوافر الغزير بقوله: "المدائح النبوية بحر لا ساحل له"، فهناك كثير من الدواوين مستقلة في هذا الموضوع والقصائد طويلة مشتملة على مئات الأبيات ومع ذلك إرث النساء حول الموضوع قليل جداً مقارنة إلى ما تركه رجال في هذا المجال، هل قلوب النساء فارغة من العواطف الدينية؟ الجواب عن هذا السؤال: لا، بل أحياناً يفقن الرجال في العواطف النبيلة. وقد رأينا شغف أمهاتنا بترانيم وأبيات شعرية مقارنة إلى آبائنا، وطبعاً نفوس المؤمنات أيضاً تهفو إلى حبه وتوقيره وتفضيله عليه الصلاة والسلام كما تهفو نفوس المؤمنين، إذاً هناك أسباب أخرى لهذا القصور وهي ترجع غالباً إلى المجتمع الذي عاشت فيه المرأة. فمثلاً كان الشعر يعتمد على الرواية في نقل في القرون الأولى للإسلام، فيندر أن تكون المرأة راوية للشعر في الجاهلية أو في صدر الإسلام، ومنها أيضاً أن المجتمع كان يستنكر صدور التشبيب أو الغزل من النساء الشواعر، وكان المدائح تأتي ضمن إطار القصيدة العمودية التقليدية، وكانت الشاعرات سجينات بين التقليدين: تقليد القصيدة العربية وتقليد المجتمع في عدم

---

١ الدين والأخلاق في شعر شوقي، علي ناصف النجدي، ص ١١٦

انشغال بالتشبيب، وأما الموضوع الذي كان بإمكانهن أن يتناولنه بحرية كبيرة ويكون له القبول عند المجتمع فكان هو الرثاء، فقصر دور الشاعرات على الرثاء في الغالب، لم يهتم المجتمع بموهبتهن ليشجعهن بسبب هذا العرف السائد آنذاك، والمدائح التي نجدها من الشاعرات اللاتي عاصرن النبي صلى الله عليه وسلم تأتي ضمن المراثي، معظمهن قريبات النبي صلى الله عليه وسلم، أشهرن عاتكة وصفية وأميمة بنات عبد المطلب عمات النبي صلى الله عليه وسلم الكريمات، ومثلاً ذكر ابن حجر ثلاث مراث لصفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها، وذكر النويري قصيدتين منها:

أفاطم فابكي ولا تسأمي بصحبك ما طلع الكوكب

هو المرء يبكي بحق البكاء هو الماجد السيد الطيب

فأوحشت الأرض من فقده وأن البرية لا تنكب

فما لي بعدك حتى الممات إلا الجوى الداخل المصلب

ليبك الرسولَ وحقت له شهود المدينة والغيّب

وروى الطبراني قصيدة أخرى لها وهي شهيرة:

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا وكنت بنا براً ولم تك جافيا

وكنت رحيما هادياً ومعلما ليبك اليوم من كان باكيا

وأما التوجيه الذي قدمه الدكتور زكي مبارك قائلاً: "إن أكثر المدائح النبوية قيل بعد وفاة الرسول وما يقال بعد الوفاة يسمى رثاء إلا في رسول الله يسمى مدحاً، كأنهم

لاحظوا أن رسول الله موصول بالحياة وأنهم يخاطبونه كما يخاطبون الأحياء"[١]، مما لا شك فيه أن الرسول صلى الله عليه وسلم أرقى وأتم وأكمل حياة برزخية من سائر المؤمنين بما فيهم الصالحون والشهداء، ومع ذلك وجب لهن أن يعبروا المشاعر الجياشة إثر هذا الحدث الجلل العظيم لفقدان صحبة النبي التي كانت تنقلهم إلى عالم النور والرحمة والقران بوجوده بينهم، فما كان النقاش حول حياة النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته آنذاك، بل كانوا يشعرون الفرق بين حضورهم في صحبة النبي وفقدانها بعد وفاته صلى الله عليه وسلم، والسبب الآخر هو "إن أشعار شواعر الرسول صلى الله عليه وسلم لم تختلف كثيراً عن أشعار العصر والبيئة لأنهن كغيرهن من الشعراء يجعلن من المعاني والقيم الخلقية أساساً في رثائهن كالشجاعة والسيادة والكرم والمروءة فضلاً عن البر والإيثار والرحمة وسواها، وهذه القيم – كما تبدو – بعضها معروف في شعر ما قبل الإسلام وبعضها الآخر لم يكن يعرف بهذه المعاني من قبل كما أنها لم تكن بمستوى المعاني الأول من الانتشار، لذلك فإن أغلب ما أثر من رثائهن تقليدي، ولم يخل من معان إسلامية تفصح عنها ألفاظ واضحة الدلالة"[٢] ومن الألفاظ التي تدل على ذلك النور والوحي والكتاب والتنزيل والرسالة والدين والعرش والسماء والكرسي والخلود والرسول والداعي والقيامة والجنة والنار، يقول سيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها وهي تخاطب النبي صلى الله عليه وسلم:

إنا فقدناك فقد الأرض وابلها وغاب منذ غبت عنا الوحي والكتب [٣]

---

١ زكي مبارك، المدائح النبوية، مطبع الشعب، القاهرة، ص ١٨

٢ فتحي ظاهر، عبد الله، رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم في أشعار الصحابيات رضي الله عنه، مجلة آداب الرافدين، عدد ٤٠، سنة ٢٠٠٥م

٣ طبقات ابن سعد، ٢/ ٩٨

وتقول سيدة عاتكة[١]:

وسحا عليه وابكيا ما بكيتما على المرتضى للمحكمات العزائم

على المرتضى للبر والعدل والتقى وللدين والإسلام بعد المظالم

على الطاهر الميمون ذي الحلم وللفضل والداعي لخير التراحم

ولعل أول مدح خالياً من غرض الرثاء هو ما أثر عن الشيماء أخت النبي صلى الله عليه وسلم بالرضاع، نقل في الزهر والإصابة أن محمد بن المعلى قال في كتاب الترقيص: إن الشيماء كانت ترقص رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول في ترقيصه هذا الكلام:

يا ربنا أبق أخي محمدا حتى أراه يافعا وأمردا

وأكبت أعاديه معا والحسدا وأعطه عزا يدوم أبدا

هذا أخ لي لم تلده أمي وليس من نسل أبي وعمي

فديته من مخول معم فأنمه اللهم فيما تنمي

وتقول أيضا رضي الله تعالى عنها:

محمد خير البشر ممن مضى ومن غبر

من حج منهم أو اعتمر أحسن من وجه القمر

---

١ طبقات ابن سعد، ٩٤/٢

من كل أنثى وذكر من كل مشبوب أغر

جنبني الله الغير فيه وأوضح لي الأثر [ص: ٣٨٢]

والشاعرة الواحدة صاحبة الديوان التي تستطيع أن تزاحم الرجال حسب قول الأستاذ أحمد حسن الزيات هي السيدة عائشة الباعونية، ولم نجد من يبلغ شأوها إلى القرن العشرين في المدائح النبوية، وذلك أنها كانت بالإضافة إلى عالمة وفقيهة ومتصوفة خطاطةً، وكتبت كتبها بيدها، وبانتعاش الدراسات حول مساهمات النساء في مجالات مختلفة بدأ الباحثون التنقيب والبحث في المصدر الأدبية والتاريخية، نرى أن النساء كانت لهن مشاركات في الشعر والإبداع ولكنها أهملت، وتسربت بعضها إلى عالم الرجال حيث روي أن سيدنا عمر رضي الله عنه كان يحرس الناس ذات ليلة وسمع عجوزاً طيبة تترنم:

على محمد صلاة الأبرار صلى عليه الطيبون الأخيار

قد كان قواما بكاء بالأسحار يا ليت شعري والمنايا أطوار

وكذلك الجارية المساماة تحفة الزاهدة سمعها سيدها يوماً تغني بحرقة:

معشر الناس ما جننت ولكن أنا سكرانة وقلبي صاح

أنا مفتونة بحب حبيب لست أبغي عن بابه من براح

وتشير هذه الأحداث أن هذا القليل الذي قدمته النساء أتت إلينا مجتزئة وعرضت حتماً للضياع، وبالمقارنة إلى الشرق العربي كان المجتمع منفتحاً إلى حد كبير في المغرب والأندلس، فمدائح أم السعد الحميري المعرفة بسعدونة وشعرها بقيت إلى عصرنا، ففي إحدى قصائدها تمنت سعدونة لثم نعل النبي صلى الله عليه وسلم لكثرة حبها له ووجدها به تقول:

سألثم التمثال إذ لم أجد للثم نعل المصطفى من سبيل

لعلي أحظى بتقبيلة في حبه الفردوس أسنى مقيل

في ظل طوبى ساكناً آمنا أسقى بأكواب من السلسبيل

وأمسح القلب به عله يسكن ما جاش به من غليل

فطالما أستشفي بأطلال من يهواه أهل الحب في كل جيل

لنرجع إلى العالمة الفقيهة المتصوفة السيدة عائشة الباعونية مرة أخرى بعد هذا التحليل البسيط لهذا الإرث، هذه الشاعرة اهتمت بإرثها بنفسها فنجت بعض مؤلفاتها من التلف، وما بقيت تثبت أنها أحياناً فاقت الرجال في كلامها المنثور والمنظوم، كما فاقت في بديعيتها المسماة ب"الفتح المبين في مدح الأمين" بديعيات أخرى للرجال ويقول أحمد حسن الزيات: "يثير عاطفة الإعجاب في المرء أن يرى في هذا العصر المظلم امرأة كالباعونية تبارز الرجال في العلم والأدب ولا يعيبها أن تكلف بالسجع، تتكلف البديع وتغوي باللفظ وتقصر إلهامها على المدائح النبوية" ومن الكتب الأخرى التي تحمل المدائح في طيها كتاب اسمه "المورد الأهنى في المولد الأسنى" ويشتمل على رقائق النظم والنثر، ففي مطلع قصيدتها البديعية تقول:

في حسن مطلع أقمار بذي سلم أصبحت في زمرة العشاق كالعلم

عرج على قاعة الوعساء منعطفاً على العقيق على الجرعاء من إضم

واقصد مصلى به باب السلام وقف لدى المقام وقبل موطئ القدم

محمد المصطفى ابن الذبيح أبو الزهراء جد أميري قتيبة الكرم

خير النبيين والبرهان متضح عقلاً ونقلاً فلم نرتب ولم نهم

ففي إطار التقليد كما نجد هنا أنها تقلد البردة البوصيرية أنها تستطيع أن تبدع المعاني المتجددة في قالب متواجد، لعلها استطاعت لهذا الإبداع بسبب وقوفها الطويل على الموروث في هذا الباب، ونحن نرى أن الشاعرات اللاتي تأثرن بالحداثة لم يستطعن أن يقنعن الجمهور على شعرهن في المديح النبوي مثل الشاعرة الفذة نازك الملائكة وذلك بانقطاع صلتها مع التراث في ظل ثورة الحداثة ضد التراث، وأما الشاعر الباعونية فشعرها موصول الصلة بالثقافة الإسلامية الأصيلة، وشواهد لذلك كثير في شعرها، ومنها أنها مثلاً اعتنت بكتاب العلامة السيوطي في خصائص النبوة حيث قامت بنظم الكتاب في منظومة رائية طويلة عنونها ب"درر الغائص في بحر المعجزات والخصائص"، إذا السيدة عائشة تمثل النساء خير التمثيل حيث وجودها يجيب كثيراً من الأسئلة حول مقدور النساء للإبداع التي كانت نتيجة لعقلية ذكورية فترة من الزمان.

تأتي الشاعرة الأخرى باسم عائشة على طليعة العصر الحديث وهي عائشة عصمت بنت إسماعيل التيمورية أخت أحمد تيمور المتوفية ١٩٠٢م، وهي أيضاً أثبت أن المرأة تستطيع أن تحسن وتبدع شريطة أن تعطى لها الفرص، مع الفارق أنها كانت تنتمي إلى الطبقة العليا ولم تبلغ ما بلغت اليها عائشة الباعونية من علو الكعب ورسوخ في العلوم الشرعية، مع ذلك لها مساهمات لا بأس بها في المديح النبوي ففي ديوان حلية الطراز قدمت قصيدة على وزن البردة بدأتها بأبيات في الغزل وعارضت بردة الإمام البوصيري ومطلع قصيدتها:

أ عن وميضٍ سرى في حِنْدسِ الظلم أم نسمة هاجت الأشواق من إضم

فجددت لي عهداً بالغرام مضى وشاقنى نحو أحبابي بذي سلم

ثم تخلص إلى المديح وقالت:

ولذت بالمصطفى رب الشفاعة إذ يدعو المنادي فتحيا الناس من رمم

طه الذي قد كسى إشراق بعثته وجه الوجود سناء الرشد والكرم[١]

والشعر العربي المعاصر يبدأ كما ذكرت في ظل الحداثة وكما أشرت فيما أعلاه أن الشاعرة نازك الملائكة سبقت إلى التأثر بالحركة الحداثية كان شعرها في الفترة الأولى من حياتها تتسم بأزمة روحية لضلال الروح في العبث والغربة، وعادت لاحقاً إلى الجو الإيماني بعد مرحلة الشباب ولم تتخلص تماماً من آثار الأزمة العميقة في باطنها، فالقصيدة التي أبدعت سماها "زنابق صوفية للرسول" لم تنشأ من التجربة الروحية بقدر ما تنشأ من التجربة الحداثية، استخدمت الشاعرة فيها الصور الرمزية على شعر التفعيلة:

وجهُ حبيبي أكبرُ من لا نهاية البحر من مداه

يسدُّ أقطاره الزُّرْقَ،

يطوى طيورَهُ، موجَهُ، رؤاهُ

وجه حبيبي: زنابقٌ، أكؤسٌ، مياهُ

وجهُ حبيبي، واللانهاياتُ عالمٌ واحدُ

ليس يُشْطرُ أو يتجزّأ

يا بحرُ قُلْ: أين ينتهي ذلك الوجه؟

قلْ أين أنت تبدأ؟

---

١ زينب فواز، الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، الناشر مؤسسة هنداوي ٢٠١٧، الجزء: ١ صفحة: ٥١٨

وجهٌ بحارٌ أضيعُ فيها، وينطفي ضوءُ كُلِّ مرفأ

ومقلتاهُ

ولكن سرعان ما ذهبت هذه المحاولات العبثية حول القصيدة النبوية أدراج الرياح حيث جاءت الشواعر المعاصرات وربطن شعرهن بمعاني سامية للدين الحنيف، وصار شعر المديح أقوى وأجود وأصدق في التعبير عن هذه المعاني، فانتعش الشعر النسوي في المديح في هذا العصر بكل معنى الكلمة، ومن هؤلاء الشاعرات عاتكة الخزرجي ووفاء وجدي وسمية العتيلي ونبيلة الخطيب وعلية الجعار وآمنة المريني وزينب بنت عابدين وغيرها، كان جلهن يذكرن النبي صلى الله عليه وسلم بسيرته وشمائله وأخلاقه وصفاته فيعبرن عن معاني الحب والشوق ويمدحنه ويثنينه ثم يربطن المديح بقضايا الأمة والتوسل والشفاعة، فالمديح عندهن أشمل ما ورد ما هذا الباب في العصور السابقة، تقول وفاء وجدي في قصيدة عنوانها "نور محمد":

إن الحبيب محمداً جمع الهدى في راحتيه الدين والدنيا لنا وشفاعة وضياء

قلبي غريب يا حبيب فلا تدع قلبي يتوه وما له غير الشفيع شواطئ وسماء

عز الشفاعة مقصدي ومحبتي لمحمد أرجو بها الرحمان في يوم يعز لقاء

غير أن آمنة المريني أكثر منهن استغراقاً في المدح لأنها آفاق فكرها متسعة وجيوب قلبها مملوءة بالمعارف بفضل اتصالها بالتصوف الحق، وهي تجعل المديح مطية لتهذيب النفس ورقي الروح، تبرز من خلاله معاني روحية دقيقة، تقول:

أوحى إلى سره من محكم الأزل أن كن نبي الهدى من صفوة البشر

وكان أبهر من شمس بذي غسق وكان أعطر من مسك ومن زهر

هذا النبي وأولو العلم تعرفه بما تواتر في الألواح والزبر

هذا الأمين الذي استصفاه خالقه هدى وتذكرة للكافر الأشر

قصيدتها المولدية بمثابة بردة العصر الحديث التي بلغ فيها مدح النبي صلى الله عليه وسلم درجة عالية من صفاء الود، تقول:

يا سيدي يا رسول الله معذرة من عاشق لك صب القلب حيران

ماذا عساني أبث اليوم من شجني وكل خطب بني الإسلام أشجاني

وهل ترانا نلم الشمل ثانية في ظل حب ومعروف وقرآن

وهل ترى نورك الميمون يترعنا بنفحة من سنا وحي وإيمان

هو الدواء لما في الروح من علل يا خبث داء عدا من كف إخوان

وأخيراً أذكر الشاعرة القدير من مواليد ١٩٨٥ التي ما زالت في الأربعينات من عمرها وهي من موريتانيا اسمها زينب بنت عابدين وهي حائزة على مسابقة "شاعر الرسول" صدرت ديوانها الأول باسم "معتكف الحروف" ومن نماذج شعرها قصيدة "هوى تأجج" عارضت بها قصيدة الشاعر محمد ولد مهدي، تقول الشاعرة فيها:

هوى تأجج في الأعماق واستعرا فاشبح بنار هوى أمست به خصرا

إن كان حب الزهراء مصدره فلا برحت معنّى صاليا شعرا

يا لائماً في هوى الهادي الأمين أفق لو كنت تعرفه نازعتني الفكرا

يظهر من خلال هذه النماذج القليلة أن الشعر النسوي المعاصر نابض بالحيوية والعذوبة والفصاحة والوعي وهو استدراك لما فرط هذا الشعر لأسباب مختلفة في هذا الموضوع المهم، وأثراه شكلاً ومضموناً وسوف يسد الفراغ الموجود لو استمر كذلك في المستقبل بإذن الله.